المشرب الصوفى

لجمال الدين الأفغانى

لسيادة الدكتور صلاح الدين المنجوفى

سفير الأفغانستان

شخصية السيد جمال الدين العلمية كانت كالمنظومة الشمسية فى غاية النظام والإتقان وكانت كل مشاعره تدور حول مركز واحد هو الأمور الاجتماعية أو « الأشياء الإنسانية » كما سماها أرسطو .

وكان الهدف والغرض من الأخلاق والسياسة عنده هو « الكمال » بالمعنى الذى كان يفكر فيه الشيخ أبو على ابن مسكويه ومولانا جلال الدين الرومى (البلخى) وبالطريقة التى أشار إليها (هيجل) Hegel وكومت Comte لا بالأصول التى ذهب إليها لامارك Lamark وداروين Darwin وهو عبارة عن الانكشاف الروحى وتصعيد الغرائز ، والتخلق بأخلاق الله .

فالسيد فى تلك الناحية كان صوفياً ، والصوفيون فى هذه المسألة عندهم نوع من التناقض الظاهرى ، لأن الكمال فى بدايته غاية الأخلاق ، والتخلق بأخلاق الله ، معناه أنه لا غاية للأخلاق يعنى «الوظيفة لأجل الوظيفة» Duty for the sake of duty وفى الحقيقة لا تناقض هناك لأن الصوفى لا يريد جزاء ولا شكوراً إلا ابتغاء وجه ربه والزلفى عنده ، وهذا هو فى ذاته غاية ولا غاية معا ، غاية ، لأن الاتحاد الشعورى مع الله هو « الكمال » وهذا هو هدف الصوفى ، ولا غاية أيضاً ، لأن الصوفى ليس له هدف مادى دنيوى أو أخروى من سلوكه إلا التخلق بأخلاق الله التى لا غاية لها ، فالله تعالى خالق لأنه خالق لا لشىء آخر .

ومن العجيب أن السيد كان مطلعا على كل مناهج المدارس الفكرية والطبيعية والاجتماعية التى وجدت فى أوربا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حتى التى وجدت فى العصر الحاضر ، بروحها وجوهرها ومؤداها ، وكان قد درس الطبيعيات

والبيالوجيا والتاريخ الطبيعى الحديث والنشوء والارتقاء ، كما أطلع أيضاً على ما تدرسه المدارس السياسية على اختلافها (الديموقراطية ، والاشتراكية والشيوعية) وكان جرحه وتعديله ونقده ورده بفكرة اجتماعية يبعثها الدين ويسيرها العقل ويقودها الكمال الإنسانى .

فمثلا يقول إذا اعتقدنا أن الإنسان من روح الله فهذه العقيدة تخلق لنا كرامة وشرفاً يقودنا إلى العز والمجد ، ويرتفع بنا إلى مستوى عال من جمال الخلق ، وكمال الذات ، وإذا ما ذهبنا إلى أننا من سلالة القرد فليس لنا إلا أن نتبع قانون الغاب ، ونهبط إلى مستوى البهائم ، مع أنه يرد على تلك العقيدة بنفس السلاح الذى استعمله داروين ويقول : إذا كان قطع أذناب كلاب الغالبين فى جزيرة مدغشقر سبباً لولادة كلاب بدون أذناب هناك ، فلم لايحدث ذلك فى الأمم السامية الذين يختنون الأولاد من ألوف من السنين ولا يوجد أولاد مختونون إلا قلة ونذرة .

فالسيد كان فى دينه موحداً ، وفى سياسته داعياً بالوحدة ، وكان يربط بين أجزاء الكون بعقيدة وجود الله الذى هو أصل الوجود ومنبع الشعور ومصدر الإرادة ، وهذه كانت فكرته الصوفية ، وبهذه العقيدة كان يربط بين الروح والجسم والمادة والمعنى وبين النظام الطبيعى والنظام الأدبى .

فالصوفى بطريقة « وحدة الوجود » التى كان السيد يسلكها يرى الوجود الحقيقى فى الله سبحانه وتعالى ، ويرى المادة والقوة ، والشعور فى كل صفاته ، ويرى أن الكون مرآة لوجوده ، وأن أجزاء الكائنات مظاهر لأسمائه الحسنى ، فمن وسعه تعالى كونت الطبيعة ، ومن علمه سبحانه خلق الشعور ، كما يقول سبنوزا — والله واسع عليم .

وهذا كان أساس تأملات السيد التى كسبها فى زيارة أفغانستان ، فمنذ ستة قرون ظهرت فى أفغانستان وشمال الهند وفى جنوب فارس مدرسة أو مذهب أو مشرب يسمى « بالعرفان » وهذه الكلمة بفحواها قريبة من كلمة « الإشراق » .

وبعد الشيخ شهاب الدين السهر وردى انقسمت المدرسة إلى قسمين مدرسة « المشائين Peripatetie » أعنى مدرسة الاستدلال المنطق الإرسطاطاليسى الاستقرائى المتكىء على الفكر الخالص ، ومدرسة الإشراقيين الذين كانوا يجمعون القلب مع المخ ويسلحون العقل بالحدس والإلهام ويزدوجون الحب مع الوظيفة ، وكان العلم ، ولاسيما علم الكلام عندهم . مجموعة من الوعى والعقل . والتصوف والمنطق والأدب ، والفرق بين الإشراق والعرفان ، أن الإشراق يطلق على الجانب العلمى والعرفان يستعمل فى الجانب الأدبى لهذا المذهب .

وهذا النوع من التصوف أعنى (وحدة الوجود) كان مؤيداً لفكرة الذرة الديمقراطية التى أيدها الدين الإسلامى ، لأن أهل الكلام ماقالوا عن فكرة الهيولى والصورة لأرسطو ، إلى نظرية الذرة التى كانت عند ديمقراطيس .

وإنى سمعت كثيراً يحكون أن السيد كان يترنم حيناً بعد حين بهذه الأبيات للشاعر الصوفى (العراقى) المعروف :

نخستين باده كاندرجام كودند زجشم مست ساقى وام كوند

* * *

جوخود كردند سرخويشتن فاش « عراقى » راجرا بد نام كردند

معنى البيت الأول :

إن أول رحيق صبوها فى القدح كان الذى استعاروه من عين الساقى السكرى

وهذه عقيدة الصوفيين الذين يقولون أن منبع الحب بذاته قدسى سماوى مأخوذ من الجمال المطلق ، فالجمال عندهم مثالى طلع من المشرق الآلهى .

ومعنى البيت الثانى وهو آخر الغزل :

فلما هم بنفسهم أفشوا سرهم

فلماذا إذن ألقوا التهمة على « العراقى » (أو لماذا أساءوا إلى سمعة العراقى)

وهذه هى عقيدة الصوفيين فى قضية « حسين بن منصور الحلاج » فيقول الشيخ محمود الشبسترى :

إن كلمة « أنا الحق » التى قالها حسين بن منصور هى كشف مطلق للأسرار ، ومن الذى يتجاسر أن يقول « أنا الحق » إلا الحق نفسه ؟ ففحوى كلام الشيخ الشبسترى أن الذى قال « أنا الحق » كان الحق ذاته ولم يكن منصور الحلاج إلا شخصاً فانياً فى الحق ولم يكن هو القائل .

فهذان البيتان من أعلى قمم التصوف ، والسيد جمال الدين كان مغرماً بهما ، وهذا دليل واضح على أن السيد فضلا عن بيئته ومحيطه العلمى والعرفانى والإشراقى ، كانت له نزعة عميقة إلى التصوف .

ويروى عن السيد أيضاً أنه كان يحاول أن يحل مسألة الأقانيم الثلاثة عند المسيحيين . أعنى « الأب والإبن وروح القدس » بنظرية وحدة الوجود ، بمعنى أن الثلاثة هى بمثابة ثلاثة مظاهر لحقيقة واحدة ، كما كان سقراط يقول : إن الخير والحق والجمال ثلاثة مظاهر للحقيقة ، ومن هذا يظهر أيضاً أن السيد كان يحاول أن تتسع الوحدة بين المسلمين والمسيحيين الأمتين اللتين كان بينهما عطف وصلة وتعاون عريق منذ فجر الإسلام .